اليأس أشدّ مرارةً من الموت

كيف قارب الأب جورج مسّوح الثورة السوريّة؟

تيمة علوان

الوطن ليس ميراث للأبناء المسرفين يبددونها.. الوطن لم يستودعه الله أيدي قذرة، إنها اختلسته.
الأوطان تهددها خطيئاتها.. لقد ملوا كلهم الحرب والحديث عن الحرب وعن المبتدئين والمسؤولين ، عن الخونة والصالحين .
ماذا يبقى من البطولات إذا اقتسموا ثيابي وعلى لباسي اقترعوا
... إن كمية الدم وكمية الرعب تبطلان كل غناء لحنوه لأنشودة الحرب

« جورج خضر، الرجاء فى زمن الحرب»

بما يزيد عن تسعين مقالاً (نُشرت في جريدة النهار وموقع ليبانون فايلز بين العامين ٢٠١١ و ٢٠١٨) وثّق الأب جورج مسوح تاريخ الثورة السورية التي اندلعت في ربيع العام ٢٠١١ ولم تخمد حتى الآن. لهذا التوثيق طابع خاص، اذ يتيح لقرائه ان يشكلوا تصوراً عن مقاربات المسيحيين في لبنان وسوريا لهذا الثورة ونتائجها، كما مقاربات سائر مواطني بلادهم. فتراه يتنقل بين المحطات الأساسية من تاريخها انطلاقا من بدايات الربيع العربي، إلى مجزرة بابا عمرو في حمص، وسقوط حلب، مروراً بالفتنة في وادي النصارى المنطقة التي هاجر منها والده إلى لبنان، والتدخل العسكري الروسي في سوريا، ليعرج على المرحلة السلفية وانتشار داعش في أجزاء من سوريا والعراق. كما يتوقف مطولاً أمام آلام اللاجئين في لبنان خاصة، وفشل المؤسسة الكنسية في الشهادة للانجيل تجاههم وتجاه المنبوذين عامة.

يسكب اللاهوتي الفذّ انجيل ربه وسير القديسين على مشاهد الموت والحقد والظلم والاستبداد، فيظهرها للعميان عارية قبيحة لا ينفع لتجميلها اللاهوت الفرّيسي الذي يعلّي السبت على الإنسان. ويعرج في مقالاته على عناوين تعبر عن تحولات الأحداث التي تبدلت معها مواقف المسيحيين في سوريا ولبنان، والتي سنستعرض خلاصات مقالاته حولها في عناوين ستة رئيسة:

- اللجوء والألم وحقوق الانسان
- التطرف الديني
- الذِّمّية ورفض الحماية
- الخطاب الدينيّ وموقف المسيحيّين
- تبرير الحروب والاستبداد
- المواطنة والعلمانية

اللجوء والألم وحقوق الانسان

هجرت الحرب الدامية في سوريا ملايين الناس الذين مات بعضهم وهو يعبر البحر ويقيم البعض الآخر في دول الجوار وغيرها بانتظار العودة. كان لهذا آثار سياسية واجتماعية واقتصادية في لبنان، وردود فعل رافضة من المجتمع وبعض السياسيين في البلاد. في هذا السياق يصف الأب مسوح حالة المجتمع اللبناني وقد تفاقمت فيه حالة «احتقار لكل ما يسمى ثقافة حقوق الانسان» إذ يُهزأ بكل مواطن يحمل هذا الثقافة ويحمل توجهًا مدنيًا، وهو ما يتناقض مع ادعاءات مزيفة في لبنان لبناء «الدولة المدنية» والتي أساسها حقوق الفرد. ويتفاقم الزيف لدى البعض لتصف الشعب اللبناني «شعبا مختارا من الله» وخاصا بطريقة ما.

آلمته مواقف بعض المسيحيين تجاه اللاجئين السوريين كما استغلال السياسيين هذه القضية الانسانية ليمارسوا عنصريّتهم وطائفيّتهم البغيضة. فالسوري الهارب من جحيم الحرب بحثا عن سقف يأويه هو القريب الذي سنُسأل عنه في الدينونة، لأن ضيافة الغرباء التي استلمنا الوصية عنها هي بالأحرى ضيافة الفقراء، والانسان هو المطرح الذي يفضل الله أن يعبد فيه، أي هو الهيكل الأبهى من الكنائس والمساجد.

يوضح الأب مسوح ان المسيح جاء ليقضي على حصرية الله في شعب واذ ذاك قتله الذين أصرّوا على أنّ «شعب الله المختار» يمتلك الله، لأنّهم أدركوا خطره على عنصريّتهم وكراهيتهم للأمم أخرى. إن يسوع الذي نعرفه لا يطل على شعب او جماعة وحدها بل بالأحرى على المنبوذين البائسين والمساكين والأرامل والأيتام والنازحين واللاجئين.

اليأس أشدّ مرارةً من الموت
كيف قارب الأب جورج مسّوح الثورة السوريّة؟

تيمة علوان

التطرف الديني

في تحليل لواقع التطرف الديني أثناء الثورة السورية، يستعيد الكاتب قصة ابراهيم التي يريدنا فيها الله ان نتحرر من كل ما هو قبيح لاسيما القتل في التاريخ الديني والاجتماعي، لا يستغرب عودة بعض الجماعات البشرية الى بربريّة الذبح والقتل العبثيّ. فالذبّاحون هم نتاج مجتمعات مشحونة بالتعصب والكراهية والتخلف الديني، الذي نتج، من بين أسباب أخرى، عن فشل المؤسسات الدينية في تربية اجيال حرة قادرة على الانفتاح ومواجهة تحديات العصر بعد أن غرّبت ابناءها عن العقل الذي يجتهد ليستنبط ما يناسب كل جيل.

وما التطرف الديني، أيضا، إلا دليل على خراب الأديان، فالحرب التي تخرب الدنيا وما فيها، تخرب الدين والأخلاق وبخاصة حين يُستغَل العامل الديني في تأجيج الصراعات الأهليّة وإيقاظ الفتنة. خراب الدّين يبدأ من لحظة تطويعه من «الفقهاء لخدمة السلاطين» والساسة في مخططاتهم ومآربهم الهادفة إلى فرض هيمنتهم. في معظم الأحيان تَخضع المرجعيّات الدينية للنظام القائم إلى حد انعدام الحرية، وهي أساس الإصلاح الديني . فكثيرا ما نرى أن الأنظمة تدعم الجهات الدينية الأكثر انغلاقاً، كما نرى أن الكثير من رؤساء الأديان في العالم العربي خاضعين للسلطة الحاكمة. فتتماهى الدولة والمؤسسات الدينية القائمة التي بدورها تزداد تطرفا في غياب الحرية.

الذمّية ورفض الحماية

يقدم الأب مسوح فهماً جديداً لحالة «الذِّمّيّة»، الذي يتربط بنظره بانتقاص المواطنة. فحتى الأغلبية المسلمة تصبح « أهل ذمة في بلادها» عندما تقبل أن تحيا في ظل ملكية مطلقة غير دستورية أو في ظل حكم الحزب الواحد. فالذِّميّ هو من يرضى أن يكون من رعايا السلطان أيا كانت صفته لا مواطنا له حق محاسبة ماسكي زمام البلاد.

رغم رفضه لمفهوم حماية الأقليات والذِّمّيّة، الا انه يتفهم الخوف والقلق الذي ينتاب المسيحيين من المستقبل، فهم عرفوا الابادة والتهجير من أغلب مناطقهم التاريخية، كأنطاكيا ومردين وديار بكر. وأسباب القلق موجودة، فحتى الآن وجب عليهم المفاضلة بين نظام لا ديني استبدادي مخابراتي، ونظام ديني لا يقل استبدادا. لكنّه يعتقد أن التخويف والاستخفاف بالخوف هما وجهان لعملة واحدة يجب تجنبها. ويرى ان المسيحيين تاقوا الى الخروج من أسر الاقليات الا ان السياقات العامة لم تساعدهم، فلا الدولة الاسلامية العثمانية سمحت ولا الانظمة العسكرية والديكتاتورية كانت أمينة على تطبيق «العلمانية» ولا المشاريع المطروحة الآن تعدهم بشيء من الانعتاق بل بالعودة الى أنظمة متخلفة. ودليله أن فرنسا لما قسمت سوريا الى دول أربع ذات أغلبيّات دينية، لم يطالب المسيحيون بدولتهم بل توزعوا على الأربعة دول مؤمنين بوحدة سوريا.

يخطئ بعض المسيحيون في بلادنا أو معظمهم، حين يعتقدون أن وجودهم في الشرق لن يدوم دون مؤازرة سلاطين هذا العالم وجبابرته أو دون التخلي عن الطوباوية المسيحية. إنه خطأ فادح أن يربط المسيحيون بقائهم ببقاء نظام يحميهم أو بتدخل أجنبي يذود عنهم. أما الأشد خطرا أن يتخلى المسيحيون عن رسالتهم وشهادتهم التي هي حمل الصليب في سبيل بقائهم. المسيحيون في التاريخ لم يمالئوا الأباطرة والولاة ولم يتعاونوا معهم أو يخضعوا لسلطانهم، هكذا انتصرت الكنيسة على الامبراطورية. لن يُقضى على المسيحيين في اوطانهم ان لم يسهموا بأنفسهم في القضاء على وجودهم وحضورهم. فاندثار المسيحيين في بعض المناطق يعود لأسباب عديدة، ولا يمكن تعليله فقط بانتشار الاسلام. وأشار إلى خصوصية «الإسلام الشامي» و «المسيحية الأنطاكية الشامية»، التي تسمح بقيام أفضل العلاقات على أساس المواطنة التامة واحترام المساواة والحريات العامة، بل ان الشراكة فيها قدر محتوم.

الخطاب الديني وموقف المسيحيين

يرى الأب مسوح أن الخطاب الديني يزداد تخلفاً في أوطاننا العربية وعوض أن يتقدم الفكر الديني مع تقدم العلوم والتقنيات وانفتاح الثقافات، نراه يتقهقر الى مجاهل التطرف والتكفير، بل ساهم التقدم التكنولوجي في تعميم الجهل الديني. بسبب ما اعتبره فشل خطاب المؤسسة الكنسية في أن يكون خطابا نبويّا في ظلّ الحرب السورية. أعاد التذكير بأن الروح لا ينحصر بالمؤسسة الكنسيّة، فموهبة النبوءة كما عرفها بولس، لا تنحصر في الاكليروس بل تتعداهم الى المؤمنين، ويقصد بالنبوّة

اليأس أشدّ مرارةً من الموت
كيف قارب الأب جورج مسّوح الثورة السوريّة؟

تيمة علوان

اعلان مشيئة الله في الازمات والمحن وتصحيح مسار الكنيسة إذا انحرفت. وميّز بوضوح بين «غير الأنبياء» الذين ينطقون بالمصالح والزبائنية والخوف والتقوقع والخشية على المصير، وبين الأنبياء الذين أكّد حضورهم بيننا، وهم الودعاء والجياع والعطاش والساعون الى السلام والمضطَهدون من أجل البر، الذين اختاروا طريق النضال اللاعنفي.

يرهبه أن الناس في بلادنا ما زالت تفضل حكامها من القتلة والمستبدين والطغاة، لا من محبي السلام والعدالة والودعاء. يمجدون القائد الفذ حتى وان أمعن في تعذيبهم وسجنهم وحرمانهم من حرياتهم وكرامتهم الانسانية، ويكادون يعبدونه إلهاً مخلّصاً ويرضون أن يقدموا ضحايا بشرية على مذبحه. ويخاف أن المصيبة الأكبر على السوريين وغيرهم، إن بقوا أحياء، هي أن يفقدوا إنسانيتهم، فما معنى أن نبقى جسدا يأكل ويشرب لكنه فاقد الانسانية بلا عطف ولا رحمة ولا محبة. ودعاهم الى التضامن وعدم الشماتة المتبادلة بقتلاهم وجرحاهم ونازحيهم. وذكر المسيحيين في العديد من مقالاته أن من يعبدوه ليس ملكا أرضيا ولا رئيس جمورية أو قائدا عسكريا، بل ابن الله الذي تنازل مولودا من امرأة فقيرة في مذود حقير.

وحد جورج مسوح نفسه مع ضحايا سوريا من كل لون «أنا أنتمي إلى ضحايا حلب الغربية وحلب الشرقية على السواء. أنتمي إلى ضحايا سوريا كلها، سوريا الأم الثكلى التي لا تريد أن تتعزى لأن أبناءها ليسوا بموجودين. خذهم الموت من حضنها. هي أمي وهم جميعا أخوتي. فكيف أفرق بين أخ وأخ؟ كيف أُسَرُّ بموتهم؟ كيف أكرههم؟ يا إلهي لقد أكثرنا قتلانا في هذه المدينة وملأنا أزقتنا من القتلى» .

تبرير الحروب والاستبداد

في سياق التدخل العسكري الروسي في سوريا، وما سمي «بالحرب على الإرهاب»، لجأت بعض الرئاسات الكنسية إلى بعض النصوص الكتابية لتبرير حروبها في سوريا، لا سيما حين طرد يسوع الباعة من الهيكل. فيما قراءة الفكر الآبائي بحسب الأب مسوح، ان هذه الحادثة هي عبرة لهم لا لسواهم، حيث يضعون أنفسهم مكان الباعة لا مكان المسيح، أي طلب الآباء من المسيحيين ألا يقعوا في فخ باعة الهيكل كي لا يأتي المسيح ويطردهم. ورفض الصمت أمام التجار واللصوص الذين يحتلون هياكل الله و يتحجّجون باسم المسيح كي يشنوا حروبهم. يوضح أن العهد الجديد يخلو كليا من أيّة آية تبدأ بفعل « قتل» بصيغة الأمر، ليس فيه دعوة لشن حروب مقدسة أو لغزوات، ولا يمكن لأحد أن يبرر عنفه استنادا الى الانجيل.

ويعود بمقالاته بعد سنة من التدخل الروسي في سوريا ليثبت أن التدخل بحجة محاربة الإرهاب، لم يجد نفعا، لان هذا الارهاب هو حصيلة سنوات من الصمت عن ارتكابات الانظمة الديكتاتورية والأحزاب الشمولية.

يستذكر الأخلاق السياسية لمعلمه جورج خضر الذي اعتقد أنه على الصعيد الاخلاقي «لا بد من القول ان من ساهم في خراب البلد لا يستطيع ان يحكمه لأنّه قد خسر مصداقيته. ثم الناس ملّوا الاقنعة يطلبون وجوها». ويؤكد أن سوريا ستطارد كل مجرم حرب فإن الاجيال الطالعة لن تحمل مسؤولية البلد ما لم ترفض تجار الموت رفضا كلّيا.

المواطنة والعلمانية

فيما أخذت الثورة السورية في بعض الأحيان طابعا دينياً، يشدّد الأب مسوح على ضرورة الفصل بين السلطة الدينية والمدنية، فلو أثبت الدين قدرته على الارتقاء بالسياسة لما ظهرت الطروحات لعلمانية، لكن الواقع يفيد أن الدين أصبح ألعوبة بيد اللاعبين بمصائر الناس واداة لنشر البغض والكراهية. الحوار الديني بات عقيما ومملا فالأجدى بنا أن نتحدث عن الدولة الحديثة والمواطنة والمساواة والحقوق والواجبات المتساوية.

وحذر انه في كل الطوائف في سوريا تعلو أصوات تدعو الى حماية من ينتمي الى طائفتها متجاهلة المكونات الأخرى من الشعب السوري، وهي اصوات لا تبتغي الحق والسلام في سوريا. فمن يفرق بين سوري وسوري آخر ومن يعتبر ان دم مواطن سوري أغلى من غيره هو انسان يحرض على المزيد من الفوضى والتشرذم. بل يجب ان يَحذَر السوريون المؤمنون بالدولة المدنية من عدم الانزلاق الى مواقف طائفية تعمق الشرخ.

كما أشار إلى اشكال زائفة من العلمانية، كتلك التي تزعم بعض الانظمة العربية انها تتحلى بها، في الوقت الذي تُسَخِّر فيه ظاهر العلمانية (أشكالها، تعبيراتها) من دون روحها (فصل الدين عن

تيمة علوان

اليأس أشدّ مرارةً من الموت
كيف قارب الأب جورج مسّوح الثورة السوريّة؟

الدولة والحرية الفردية وغيرها من القيم)، في حين أنها تكرّس استبداداً يماثل الاستبداد الديني. كما أن العلمانية التي تحارب المظاهر الدينية وتمنعها لا تختلف منهجيا وفكريّا عن المنظمات الدينية المختلفة فكلاهما وجه لعملة واحدة تتجلى بقمع الحريّات العامة. فيما العلمانية الحق تسهم في نشر ثقافة قبول الاخر واحترامه دون التخلي عن الهوية الذاتية، وهي فسحة تتوفر فيها قيم أساسية كاحترام حقوق الانسان واحترام التنوع واحترام الحرية الفردية وهي فصل تام للدين عن الدولة.

الخاتمة

سقطت الغوطة الشرقية لدمشق، ترك «هيرودس» أطفالها قتلى بالأسلحة المحرّمة، وتلاشت أحلام الكثيرين من السوريين والسوريات بتحقيق التغيير الذي أرادوه في ربيع ٢٠١١، لم يبقى للكلام من معنى، فالقلوب تحجرت، والآذان صُمَّت، والكنائس أمست هياكل فارغة الا من قطيع صغير من أجل ربه يُمات كل نهار، فترك في الأيام نفسها الأب مسوح حبر قلمه يجف على جرائد لا تنقل سوى أخبار الموت، وانطلق ليكلّم ربه وجها لوجه حيث خبر القيامة هو الخبر الوحيد. لكنّه قبل رحيله أخبرنا أن « أغناطيوس السوري انتصر على الإمبراطور الروماني وسوف ينتصر»، ودعا السوريين إلى التمسك بالرجاء. فاليأس أشد مرارة من الموت الجسدي، ويغيظ المعتدي أن يرى ضحيته شجاعاً متمسكاً بمبادئه وقائماً من بين الأموات. كان يعرف أن سوريا لن تصنعها الحروب، بل سيصنعها الساعون من أبنائها الى السلام. هؤلاء هم أبناؤها البررة وهم شهود لوحدتها وقيامتها الآتية بلا ريب.

رسم الأب مسّوح صورة لنهوض سوريا ترتبط بنهوض المواطن السوري الفرد، ليصبح على صورة الله حرّا، فالأوطان يصنعها مواطنوها الأحرار. كما ترتبط بتوفر سلام حقيقي يترافق مع العدالة والحرية والكرامة الانسانية، فالسلام كما عرفه الأب مسوح ليس ميثاقا بين المتحاربين، بل هو وضعٌ للإنسان يحيا فيه بطمأنينة ووئام مع الطبيعة ونفسه وربّه.